رؤوس كبيرة وقلوب صغيرة

النقيب المهندس سليمان هارون

"اذا اردت ان تمتلك ثروة كبيرة، عليك ان تجمعها من الفقراء
صحيح انهم لا يملكون الكثير من المال، ولكن هناك الكثير من الفقراء" .
ألفونس ألي

لا ضيران يكون بعض المسؤولين في الدولة من اصحاب الثروات الكبيرة، طالما انهم جمعوها بعملهم وجهودهم قبل تبوئهم سدة المسؤولية. هذا حقهم وهم لا شك يتمتعون ايضاً بمستوى عال من الذكاء مكنهم من الوصول الى ما وصلوا اليه. المشكلة تبدأ اذا ما حجبت عنهم ثروتهم رؤية مشاكل الناس العاديين بوضوح، هؤلاء الذين يعملون بكد وجد كي يعيشوا مستورين في خوف الله دون حاجة ان يطلبوا شيئاً من احد او ان يتوسلّوا كي يحصلوا على حقوقهم. هؤلاء الناس هم آباء وامهات وشبان وشابات واطفال حقهم ان يعيشوا بكرامة وان يأملوا بغد واعد ويتمتعوا بإطمئنان داخلي، وهم في ذلك لا تعنيهم الثروات الكبيرة ولا يسعون اليها ولا هم بحاجة اليها كي يحققوا ما تصبو اليه نفوسهم. من هؤلاء يخرج المثقفون والكتاب والشعراء والفنانون والعلماء والمخترعون والمؤلفون هؤلاء هم الذين يصنعون الحضارات ويدخلون كتب التاريخ وعقول وقلوب الاجيال وهم في ذلك لا يحتاجون الى فائض من المال بل فقط الى مناخ حضاري يؤمن لهم الهدوء والسكينة وصفاء الذهن.

في الديمقراطيات الناجزة، ينتخب الناس من يشعرهم انه يتفهم مشاكلهم الحياتية، ويتعاطف معهم حينما يواجهون الصعوبات. اما في لبنان، فغالباً ما يكون الامر شأناً آخراً، غير ان اخطر ما يواجهه النسيج الاجتماعي عندنا هو تنامي سلطة المال وتأثير قوى الرأسمالية على تحديد توجهات السياسة الاجتماعية للدولة.

فالرأسماليون في لبنان لطالما كانوا وما زالوا ركناً اساسياً من التركيبة الحاكمة، وهم استفادوا بوفرة من خيرات البلاد البرية والبحرية والجوية والبشرية في جميع الظروف وعلى

مدى عقود، وبالتالي من الصعب جداً على المواطن العادي ان يفهم كيف انهم يتبرؤون مما وصلت اليه الان الحال الاقتصادية من سوء وكيف انهم يريدون ان يتحمل الناس اليوم تبعات ما شاركوا هم في صنعه. هذا يحصل في ظل شعور عارم بأن الدولة تحمي الرأسمالية على حساب العمال والموظفين. فهي مثلاً عندما تفتش عن طرق تمويل سلسلة الرتب والرواتب، تبحث في زيادة الضرائب على الفوائد التي تعطى للمودعين، وهذا يشمل الصغار منهم طبعاً، بدلاً من ان تفرض ضرائب على ارباح المصارف التي تتباهى على صفحات الجرائد بأنها تبلغ مليارات الدولارات سنوياً، وهي ترى ان تضاعف قيمة الطوابع التي يضعها المواطن العادي على معاملاته بدلاً من ان تضع الضرائب على ارباح العقارات، ناهيك عن الاملاك البحرية والثروات البيئية المستباحة من قبل من صارت اسماءهم معلومة ومنشورة على صفحات الجرائد. فالفقراء لم يستفيدوا يوم كانت البلاد في بحبوحة، وحرام ان يدفعوا هم ثمن الضيقة الحالية.

على الدولة ان تضع سياسة اجتماعية واضحة المعالم والتوجهات لتكون في خدمة المواطن الذي يرزح تحت اعباء معيشية ولا فائدة ان تحاول لعب دور الحكم بين الافرقاء فإذا عجزوا عن الاتفاق تترك الامور على غاربها وتتنصل منها. الدولة ليست حكماً بل هي قوة عادلة تأمر بما هو منصف للجميع.

من المؤسف القول ان الدولة لغاية الان وفي محطات عديدة، بدت وكأنها هي والقوى الرأسمالية وجهان لعملة واحدة.

في ايار ١٩٧٤ كان يتنافس على رئاسة الجمهورية الفرنسية مرشح ديغولي يميني، معروف بذكاءه المتوقد هو فاليري جيسكار ديستان، ومرشح يساري هو فرنسوا ميتران وفي المناظرة التلفزيونية التي جمعتهما قبيل الجولة الثانية من الانتخابات، يقول ميتران متحدثاً عن رؤيته ومفهومه للعمل في الشأن العام، وموجهاً كلامه الى خصمه: المسألة هي ليست فقط في العقل وانما هي كذلك في القلب ويجيبه جيسكار ديستان: سيد ميتران انت لست وكيلاً حصرياً على القلوب. لقد ربح يومها جيسكار ديستان الانتخابات. ربما لم يتمكن يومها المتخصصون في استفتاءات الرأي العام ان يحتسبوا مدى تأثير هذا التبادل الكلامي على النتائج، غير ان المؤرخين اجمعوا على اعتباره العلامة الفارقة في تلك الانتخابات وصار الاكثر شهرة في قاموس السياسة الفرنسية، لانه اظهر بطريقة دراماتيكية ان العنصر الاساسي في قوة رجل السياسة هو في مدى تعاطفه مع مشاكل الناس وفي المقابل عطف الناس عليه وحبهم له، هذا في فرنسا.

اما في لبنان، فنحن نعيش في ظل نظام نمت جذوره في تربة طائفية-اقطاعية، وتطور مع الزمن ليصبح طائفياً - رأسمالياً مقنّعا بديمقراطية شمطاء، وهو بلا شك ينتج قادة يتمتعون بذكاء سياسي مميز. طبعاً نحن نريدهم ان يكونوا اذكياء، ولكن ما نريده اكثر هو ان يكون لهم قلب كبير يدلهم على ما ينتظره الناس منهم، ويخفق على وتيرة احزانهم واتراحهم.

نريدهم ان يشعروا بالقهر الذي يعانيه الاستاذ الذي صار يخرج الى الشارع اكثر مما يدخل الى المدرسة، وبالاذلال الذي يشعر به المتقاعد المكشوف صحياً كلما كان بحاجة الى دواء او استشفاء، وبالثورة التي تغلي في صدر الشاب المثقف عندما لا يجد عملاً، وبالحزن لدى ربّ العائلة الذي لا يكفيه راتبه اكثر من اسبوع في الشهر... عندها وعندها فقط يصبح البحث عن حلول لمشاكل الناس صادقاً ومجدياً وسريعاً.